

تكامل البناء النفسي بين سلوك الإنسان والجريمة

- مقاربات مفاهيمية -

الاستاذ: دالي رشيد

أستاذ جامعة سيدي بلعباس

يتضمن التكامل في البناء النفسي للإنسان ، النمو والنضج والتوافق والترابط بين جوانب الشخصية عند الإنسان : الجسمية والعقلية و الشعورية و اللاشعورية.

يتم التكامل الجسدي عن طريق ما يحدثه جهاز الغدد الصماء في الجسم ، و الجهاز العصبي الذي يؤثر على عمل الوحدات و المجموعات الصغيرة الجسمية التي تتظم مع بعضها لتكون وحدات أشمل و أعم تتعاون أيضا في تأدية الوظائف الجسمية و العقلية المعقدة بحيث يتج عن ذلك السلوك الكلي الذي تقوم به أعضاء الجسم بالنسبة للمؤثرات المختلفة ، حيث تسم عملية الترابط و التعاون و الانتظام و التكامل الى الوحدة الشاملة الكبيرة التي تمثل الجسم كله في تصرفه إزاء عوامل البيئة . (01) وتبدو مظاهر التكامل الجسدي في التأزر الذي يتم بين إفرازات الغدد الصماء التي تعمل على الوصول إلى نوع من الاتزان في التركيب الكيميائي الذي يميز الطابع المزاجي للفرد حيث تقوم بعض الغدد بالعمل على توازن أو تعويض الإفرازات الغدية الأخرى، وتعادل هرموناتها بما يحفظ حالة الاتزان الممكن بين هذه الإفرازات (02) .

كما أن اكتمال تكوين الجهاز العصبي عند الإنسان معناه اكتمال الترابط والتنظيم بين عمليات الإحساس و إدراك المثيرات ، وتنظيم وتكامل الإحساسات المتصلة بالحركة والاتزان، وتنظيم وتنسيق جميع الوظائف التي يقوم بها الجهاز العصبي للإنسان .

والتكامل العقلي يتضمن كيفية حدوث العمليات العقلية والوظائف النفسية والتطورات التي تحدث فيها منذ نشأة الصغير وتقدم حياته بتقدم مراحل النمو .

ولا تقتصر ظاهرة التكامل العقلي على الربط بين الإحساسات والردود الحركية الإدراكية و خاصة تلك التي تتم في مراحل العمر المبكرة ، بل يمتد أيضا في مراحل العمر المتقدمة ليشمل ما يحدث من تكوين الارتباطات بين أعمال الفرد و تصرفاته المتابعة المتكررة التي تتطور بتأثير الانتظام و التكامل ، و التي يكون نتائجها العادات السلوكية التي تمكن الفرد من القيام بالكثير من الأعمال بانتظام و اقتصاد في الوقت و الجهد .

كما يظهر ذلك أيضا فيما يكتسبه الفرد من المعارف و ضروب الثقافة ، حيث إنه كلما كانت المعلومات التي يكتسبها مترابطة و متماسكة مع خبراته الماضية أمكنه الانتفاع بها ، وكان مردودها له أثره على الاتجاهات والميول الثقافية و المهارات التي يقوى بعضها البعض وتتعاون على حسن التوافق في المواقف الجديدة (03) .

كما تظهر ذلك أيضا أهمية التكامل في الجوانب العقلية في محيط الحياة الإنتفاعية و الوجدانية ، إذ إن النضج الانفعالي يتضمن تألف الانفعالات و تجمعها حول مراكز مشتركة و الانتظام حول موضوعات معينة أو أشخاص أو أفراد فتتكون منها العواطف التي تحدد السلوك وتنظمه و تساعد على تحقيق أغراض موحدة هو الذي يؤدي في النهاية إلى التكامل الشخصية .

و فيما يتعلق بتكامل المكونات الشعورية و اللاشعورية فإن الجهاز النفسي للإنسان و اللاشعور يكون وراء الكثير من الإضطرابات (04) التي تنتج من عدم التوافق و التوازن بين الرغبات الشعورية

والقوى اللاشعورية ، و ما يحدث في النفس من صراع بين مكونات النفس

وفق نظرية التحليل النفسي و التي سنعرضها فيما بعد و هي "النفس البدائية" و الأنا "النفس الذاتية" و الذات العليا "النفس اللوامة" (05) أو بين إحدى هذه القوى و بين عوامل البيئة .

و كلما قوى الضمير وسادت كلمة الذات العليا كان ذلك دليلاً على قوة الشخصية ، حيث يمكن للفرد أن يكون من السهولة أمامه بحيث يفصل في المواقف المختلفة بتحكيم قواه العقلية وإرادته فيتجه سلوكه إلى السوية التي يرضاها لنفسه و يرضاها المجتمع ، و معنى ذلك تقل حدة العقد النفسية بحيث تنسجم المحتويات اللاشعورية مع الحياة الشعورية للفرد .

كما يتضمن التكامل بين المكونات الشعورية و اللاشعورية محاولة الفرد تقبل ذاته عن حقيقتها و العمل على الرضا بالذات والعمل على إسعاد نفسه ، و بذلك يتسم سلوكه بالسوية و البعد عن التكلف ، ذلك لأن أعظم الشقاء و الانحلال النفسي هو ما يحدث نتيجة محاولة الفرد كبت مشاعره ، و الظهور بمظاهر تخالف الذات ، و هذه المحاولات من الناحية النفسية مصيرها الفشل الدائب ، فضلاً عما ينتاب الفرد من قلق و توتر و اضطراب .

يتضمن التكامل العام للبناء النفسي للإنسان التوافق و التالف بين المكونات الجسمية و العقلية الشعورية و اللاشعورية .

ولا يتوازن التكامل بهذا المعنى إلا عند ارتباط خبرات الفرد الماضية بحياته الحاضرة ، و تفاعل هذه و تلك مع آمال المستقبل وإمكاناته(07) ، حيث تتعاون جميعها نحو مواجهة مطالب الحياة والاستجابة إليها متكاملة متزنة .

و من مظاهر تكامل البناء النفسي للإنسان و الذي يؤدي إلى الصحة النفسية ما يأتي

*- النمو الكامل للقدرات و الاستعدادات و الدوافع الفطرية والمكتسبة .

*- إمكانية هذه القدرات و الاستعدادات و الدوافع مع التعبير عن نفسها .

*- التوافق و التألف و عدم وجود التصادم بين هذه الطاقات أثناء التعبير عن نفسها .

*- عدم تعارض هذه الطاقات مع متطلبات البيئة المادية والاجتماعية .

*- الخلو من الإضطرابات و الأمراض النفسية و العقلية .

*- الشعور بالقدرة على العمل و الإنتاج و الإحساس بالسعادة .

أما عن مستوى تكامل البناء النفسي مع تكامل الشخصية ومدى ما لدى الفرد من الصحة النفسية فنجد اختلاف المستويات كالآتي :

- مستوى الإنتاج العقلي : فكل فرد لديه طاقة محدودة و كفاءة خاصة ، إذ قل الإنتاج عنها ، تترتب على ذلك أن يصبح الفرد خاملاً كسولاً ضعيف الشخصية ، و إذا زاد الإنتاج عن الحدود و الطاقات ، فإن ذلك يكون على حساب

الجهاز العصبي (08) ، فيؤدي ذلك إلى الإرهاق و الانهيار العصبي ، و هناك أفراد تؤدي بهم أعصابهم المرهقة و القلق النفسي الناجم إلى مضاعفة جهودهم بشكل مبالغ فيه ، فيحدث لهم الانهيار العصبي نتيجة ذلك الإرهاق وقد يتبع ذلك اضطرابات سلوكية متباينة .

ولا تتوقف الصحة النفسية حسبما يتصور البعض على الخلو من المشكلات وإنما على القدرة على مواجهتها بثبات و إيجاد الحلول المناسبة من قبل الفرد في صبر وإتزان .

☆- شذوذ و انحلال الشخصية :

نظرا للفروق القائمة بين البشر فإن هناك تفاوتاً في تكامل الشخصية ، وعدم تكامل الشخصية من شأنه أن يؤدي إلى تفكك وتناثر عناصرها ، ويظهر أثر ذلك في السلوك الشاذ و الانحراف ، وعلينا أن نفهم معنى الشذوذ حتى يمكن أن نفهم معنى انحلال الشخصية و هناك معان عدة للشذوذ تتمثل في :

*- المعنى الإحصائي للشذوذ: فالفرد الشاذ هو الفرد (10) غير العادي ، و هذا المعنى من شأنه ان يشمل جميع الحالات التي تنحرف عن المتوسط الإحصائي لظاهرة معينة او تخرج عن المعتاد و من ناحية الإحصائية يكون توزيع أي سمة عقلية أو جسمية بين مختلف الأفراد يتبع المنحنى الإعتدالي ، و الذي من خصائصه تجمع غالبية الأفراد في الوسط ، و تدرج التوزيع على الجانبين ، حيث نجد الحالات المتطرفة في نهايتي المنحنى ، و هي حالات يعبر عنها بأنها غير عادية ، لذلك فالمعنى الإحصائي للشذوذ يمثل الطرفين في توزيع أي سمة ، أولئك الذين

يتميزون بدرجة عالية في صفة أو سمة وأولئك الذين يوصفون بالضعف في تلك الصفة أو السمة مثل العباقرة المفرطين في الذكاء يعتبرون من الشواذ ، و الأغبياء الذين تصل نسبة ذكائهم إلى درجات اقل بكثير من المتوسط العام يعتبرون أيضا من الشواذ ، و العمالقة المفرطين في طول القامة شواذ ، وقصار القامة شواذ ايضا (11) و الذين تكثر لديهم الاضطرابات السلوكية عن المعتاد هم شواذ كذلك .

*- المعنى البيولوجي للشذوذ : و هو الناجم عن نقص التكويني او الولادي في النواحي الجسمية أو العقلية ، فالعجز أو الضمور أو الخلل في بعض الأجهزة الجسمية و إعاقه بعض الوظائف الحركية أو العقلية يسمى شذوذا .

*- المعنى الاجتماعي للشذوذ : و هو كل ما يخرج عن القيم والتقاليد والعادات التي تحكم سلوك الجماعة أو كل ما فيه غرابة عن المعتاد أو خروج عن المألوف في البيئة التي يعيش فيها الفرد الذي يخضع لتعاليم

الدين الحنيف في المجتمع الإسلامي يعتبر شاذا ، و المرأة التي لا تخضع لتقاليد الحجاب و عدم الاختلاط بالرجال تعتبر شاذة من وجهة نظر الدين الحنيف .

و من الواضح أن الشذوذ بهذا المعنى يعتبر نسبيا ، و يتوقف على ما يسود المجتمع من معايير و قيم اجتماعية سائدة ، إذ إن ما يراه الناس أمرا عاديا (12) لا غرابة فيه في مجتمع معين ، قد يبدو منكرا أو شاذا في مجتمع آخر ، حيث يكون التكوين الاجتماعي والطابع الثقافي هو المعيار الذي نرجع إليه كأساس للحكم على الشذوذ .

*- المعنى النفس للشذوذ : الشذوذ من الناحية النفسية يمثل حالة منحلات الفروق الفردية عندما تصل هذه الفروق إلى درجة تجعل الفرد يسلك سلوكا غريبا يؤثر في إنتاجه وتكيفه الاجتماعي بشكل واضح .

و يفرق علم النفس بين الشذوذ في درجاته الإيجابية ، و هي التي يكون الفرد فيها فوق العادي super normal كحالات العباقرة (13) ، و الشذوذ في النواحي السلبية و هي التي يكون فيها الفرد أقل من العادي sub normal كحالات الضعف العقلي و المرض النفسي والجنوح .

و يعنينا إبراز الجانب السلبي و الخاص بالأفراد الذين يبدو في سلوكهم وتصرفاتهم نوع من الغرابة ، و الذين تتصف شخصياتهم بالانحلال و التفكك والبعد عن التكامل بدرجة كبيرة .

لذلك من الناحية النفسية يقاس الشذوذ السلبي بمبلغ ما أصاب مكونات الشخصية من الاضطرابات الذي يؤدي إلى ضعف الصحة النفسية ، فالشذوذ الشاذ هو الذي يظهر لديه نقص أو خلل في إحدى مكونات الشخصية ، بحيث يظهر أثر ذلك في تصرفاته ، حيث لا تتوازن لديه قوى النفس الشعورية و اللاشعورية مع مؤشرات البيئة المحيطة به فيندفع في أعماله بدون ضابط و بدون هدف .

و عند الحكم على درجة الشذوذ أو التكامل (14) عند أي فرد يؤخذ في الاعتبار عوامل كثيرة من أهمها عامل السن و مرحلة النمو التي يمر بها الفرد، فالشذوذ في مرحلة الطفولة في أي مظهر لا يتناسب والمرحلة العمرية للطفولة فقد يكون تصرفا عاديا بالنسبة لشاب في دور المراهقة .

لذلك فالشدوذ أمر نسبي يتوقف على درجة ما وصل إليه الفرد من الاضطرابات و على مدى تمشى تصرفاته مع المرحلة الزمنية التي يمر بها ، و يقاس كل ذلك في ضوء الظروف المحيطة بالفرد و المعايير التي يقاس عليها الشدوذ .

وقد يظهر الشدوذ في ناحية معينة من نواحي شخصية الفرد، بينما يبدو الشخص عاديا في نواحي شخصيته الأخرى ، غير أن أي اضطراب يؤثر على جانب من جوانب الشخصية من شأنه أن يؤثر على باقي الجوانب الأخرى، مما يجعل الشدوذ شاملا للبناء الشخصي كله للفرد و من المناسب أن نوضح في عجالة مظاهر الشدوذ في الشخصية حسب مكوناتها الرئيسية ، حيث إن ذلك يساعدنا في فهم أعمق للظاهرة الإجرامية (15)، فهناك الشدوذ في النواحي :

- 1- الجسمية : و يظهر ذلك في الأمراض الجسمية و مشاكل ذوي العاهات .
- 2- العقلية : و يظهر في حالات الضعف العقلي و المعرفي بأنواعه .
- 3- المزاجية : و يظهر في مشكلات الأطفال و الأمراض النفسية .
- 4- الخلقية و الاجتماعية: و يظهر في الانحراف و الجنوح و التشرذ و ارتكاب الجرائم .

و من الناحية النفسية علينا أن نشير أيضا إلى أن الشدوذ في أي جانب من جوانب الشخصية يؤثر على باقي الجوانب الأخرى، كما أن الشدوذ والانحراف لا يرجع لسبب واحد وإنما يعود في غالب الأمر إلى جملة أسباب.

☆- تفسير الاضطرابات السلوكية :

حاولت مدرسة التحليل النفسي تفسير الاضطرابات السلوكية في ضوء مكونات نفسية و تربوية تبدأ بالتنشئة الاجتماعية أو في ضوء ما

حددوا به مكونات الشخصية و الشخصية عند مدرسة " التحليل النفسي " تتألف من الجوانب التالية :

أ- اهو : و يشمل مجموعة الغرائز الفطرية و النزاعات الانانية عند الإنسان ، و من خصائصه أنه يقوم على أساس مبدأ اللذة و يعرف أيضا بالنفس البدائية .

ب- الأنا : أو الذات أو النفس الذاتية و هو المسؤول عن تحقيق التوافق النفسي والاجتماعي السوي أو الرضى عند الفرد، أي أن استواء أو انحراف السلوك يتوقف على الوظيفة المتوازنة "الأنا" التي تحاول تحقيق مطالب الإنسان الشهوية في إطار ما يسمح به المجتمع والقيم والمثل العليا التي يتمسك بها الفرد ، فإذا ما عجزت الأنا التي تسير وفقا لمنهج الواقع عن التوفيق السوي للمشروع و أدى ذلك إلى الاضطرابات النفسية و السلوكية سواء في جانب التطرف في إرضاء حاجاته الشهوية أو في الجانب المضاد (16) و هو التطرف في إرضاء متطلبات المثل العليا البعيدة عن الواقع كاعتزال الناس و العمل و الزواج و الاستمتاع بما أحل الله حتى الاستمتاع المشروع و يصبح الفرد مترددا خائفا شاعرا بالذنب و معنى ذلك عجز " الأنا " و معناه الإسهام في ظهور كافة أنواع السلوك الانحراف يتم في بما في ذلك السلوك الإجرامي .

ج- الأنا الأعلى : و يشمل مجموعة المثل العليا و القيم المثالية التي يكتسبها الإنسان من محيط الأسرة و المؤسسات الخاصة بالتنشئة الاجتماعية التي يعيش داخلها ، و التي تعكس العقيدة و الثقافة

وتتمثل في مجموعة الأوامر و النواهي التي يتلقاها الطفل من والديه ، ويقوم الأنا الأعلى على مبدأ المثالية ، و تذهب مدرسة التحليل النفسي إلى أن هناك صراعا دائما و مستمرا بين عنصري الشخصية العنصر الغريزي و العنصر المثالي ، و معيار استواء الشخصية أو انحرافها يتوقف على قدرة العنصر الثالث للشخصية في تحقيق التوافق بين العنصرين المتصارعين و هو الأنا " النفس الذاتية " .

وفي رأي مدرسة التحليل النفسي أن ظاهرة السلوك الإنحرافي ومنه السلوك الإجرامي يمكن تفسيره في ضوء مفاهيم اللاشعور و التربية والعقد النفسية ، و الكبت أو في ضوء مكونات الحياة النفسية عند الإنسان مع التركيز المفرط على الدافع الجنسي أو ما يطلقون عليه أحيانا غريزة الموت ، و يؤكد علماء هذه المدرسة الآثار المدمرة لكبت الدافع الجنسي و هو ما يؤدي عندهم إلى العقد النفسية التي تعبر عن نفسها في العديد من مظاهر السلوك الإجرامي ، كما يؤكدون أن بذور الصحة النفسية والمرض النفسي و السلوك الإنحرافي للإنسان تظهر أثناء مرحلة الطفولة و خاصة المبكرة خلال عمليات التنشئة الاجتماعية، ومن أساليب التعامل التي يتلقاها الطفل من المخالطين له حيث تكون عقيدته و مواقفه من السلطة والمجتمع و الأسرة والعمل والجنس الآخر والتعليم و الذات ... إلخ. (17)

كما يشير مؤيدو مدرسة التحليل النفسي إلى أن الرابطة بين الشخصية السوية و الشخصية المريضة أو الشاذة تتمثل في الصراع

بين مكونات الشخصية و في رأي هذه المدرسة أن ضوابط مستمرة يتعرض لها الإنسان في حياته منذ الصغر و أول هذه الضوابط تتمثل فيما تحاول الأم من تنظيم مواعيد الرضاعة و ضبط أمعائه و مثانته و عند فطامه .

☆- الصراع النفسي و تفسير السلوك المنحرف :

تشير مدرسة التحليل النفسي إلى أن حياة الفرد تتمثل في سلسلة متصلة من الصراعات ولا يمكن القول بذلك لأن الصراع ظاهرة مرضية .

و الصراع قد يكون بسيطاً و قد يكون حاداً حسب عدد الدوافع التي تشترك به و شدتها ، و الصراع النفسي البسيط و هو الذي ينطوي على الإحباط للدافع ، أي إعاقته عن بلوغ هدفه ، أما الصراعات الحادة أو ما تعرف بالعقد فمن أمثاله تردد الفرد بين القيام بعملين ، و يظهر هذا الصراع في المواقف الحاسمة في حياة الفرد (18) .

وقد يكون الصراع شعورياً كما يكون لا شعورياً ويعرف الصراع الشعوري بأنه الصراع الذي يدرك الفرد أطرافه، مثال ذلك عندما يكون الدافع للزواج عند شاب و تكوين أسرة والاستقرار والدافع للسفر للخارج لاستكمال الدراسة أو لعمل مشروعات اقتصادية... إلخ .

أما الصراع النفسي اللاشعوري فهو الذي يكون أحد طرفيه خالياً لا يدرك الفرد وجوده مثل الرغبة في تحقيق مشروع ما و الخوف من الفشل و العجز الذي لا يدركه الإنسان و من رأى علماء النفس أن

الصراع الشعوري صراع سطحي يفضى إلى الضيق والتوتر والمضايقة ولكنه لا يؤدي إلى اضطرابات خطيرة في الشخصية .

أما الصراعات اللاشعورية فإنها تعد العامل الأساسي في مختلف الأمراض النفسية وتفكك الشخصية وبعض الأمراض العقلية، فالصراعات الشعورية يمكن إيقافها وإدارتها وحسمها، بعكس الصراعات اللاشعورية التي لا يدرك الفرد أطرافها (19) وبالتالي لا يستطيع مواجهتها بشكل يحسم الأمر، و من أخطر أنواع هذه الصراعات تلك التي تكون قد تمت تنشئتها خلال مرحلة الطفولة المبكرة في عمليات التنشئة الاجتماعية .

بالنسبة للصحة النفسية للفرد في علوم النفسية يقصر علماء النفس الصراع على الصراع النفسي الداخلي الذي من خصائصه العمق والاستمرار والتعارض بين دافعين لا يمكن تحقيقهما في وقت واحد ، ومن ثم يحدث الإحباط والتردد لذلك يعرف الصراع النفسي بأنه حالة نفسية ثابتة نسبياً من القلق والتوتر والأزمات النفسية المستمرة نتيجة لهذا التعارض

وهناك الفروق الفردية بين الأفراد من حيث القدرة على احتمال الإحباطات نتيجة لوجود عدة عوامل في مقدمتها قوة العقيدة الدينية لديه ، أو ضعفها و نوع التربية التي تلقاها و مدى كفاءة الجهاز العصبي والغدي و كلما رسخت العقيدة عند الفرد فإن التفكير والتقدير

فيما يواجه من مشاكل معتمدا على الله سبحانه و تعالى فيخرج من المأزق مهما كانت قوة التوترات النفسية التي يعانيتها .

بينما هناك نفر من الناس يتخاذل و يسارع إلى الاستسلام (20) و منهم من يلجأ على أساليب غير سوية في السلوك الإنحرافي أو الإجرامي ، و قد يظهر من المجرمين من سلك طريق الانحراف كتعويض مسرف عن شعور عميق بالنقص ، كان نتيجة التربية الضالة خلال فترة الطفولة المبكرة التي كانت تتسم بالقسوة و النبذ .

وهناك الكثير من جرائم الجنس و المال وقعت من أفراد لا يستطيعون السيطرة على دوافعهم الشهوية لنقص في تربيتهم و عجزهم عن تأجيل الرغبات و تحمل الحرمان و عدم نضجهم الانفعالي ، و من هذه الزوايا قام بعض الدارسين بتصنيف أنواع الجريمة جرائم العواطف أو المجرم بالعاطفة .

و بعض الأفراد كثيرا ما يفشلون في مواجهة الصراع النفسي بشكل واقعي مباشر نتيجة نقص في إيمانهم و سوء تربيتهم أو لأن المشكلة تفوق قدرتهم على حلها أو احتمالها ، أو كانت لا شعورية خلال طفولته المبكرة أو لم يتعلم في ماضيه أساليب مواجهة المشكلات بشكل ناجح ، و مثل هؤلاء الأفراد يعانون من حالات إحباط مستمرة وقد يلجئون إلى طرق ملتوية وسلبية و خادعة للتخلص من هذا الشعور المؤلم المستمر بالإحباط و منها السلوك العدواني و الإنحرافي والجريمة ، و هذه الطرق هي ما تعرف في الدراسات النفسية بالحيل

الدفاعية أو خافضات القلق و هو خفض مرضى زائف للقلق و التوتر ، و يؤدي بالفرد إلى الوقوع في المزيد من المشكلات .

و عادة لا يشعر الإنسان بهذه الحيل حيث يقوم بأدائها بشكل آلي غير مقصود وهي ليست أساليب سوية لمواجهة المشكلات بل تستهدف مواجهة الأزمة التي يمر بها الفرد او المشكلة التي تواجهه ، و لكنها تريجه لحد ما ، إذ إن غايتها التخلص المؤقت أو ما يعرف بالزائف من التوتر والقلق .

ولا يتسع المجال هنا لإبراز تفاصيل الحيل النفسية الدفاعية و التي تمثل سلوكا إنحرافيا و يكتفي أن نذكر من هذه الحيل ما يعرف بالعدوان في بعض صورته .

فالعدوان aggressoin (21) عبارة عن كل إيذاء غير مشروع للغير أو الذات و قد يكون في شكل عدوان جسمي او عدوان لفظي أو عدوان بالكيد والإيقاع والتشهير والغيبة والنميمة والتنازع والسخرية من الآخرين وقد يكون في صورة غير مباشرة كالإهمال والاستخفاف بشيء أو بشخص أو الحسد أو تمني زوال نعمة الغير، كما قد يتخذ صور إفراط في الالتزام من جانب الأبوين تجاه الأبناء وعدم إتاحة فرص التعبير عن آرائهم أو رغباتهم ، و قد يتخذ

صورة الجرائم بأشكالها المختلفة ، و قد ذهب بعض رواد مدرسة التحليل النفسي إلى أن العدوان فطري متأصل في نفس الإنسانية، وهناك العديد من الدراسات الأنتروبولوجية اللاحقة أوضحت هذا الرأي ،

مشيرة إلى ان هناك مجتمعات لا تعرف العدوان الجسمي ، ومن صور العدوان :

أ- العدوان المزاح : و هو أساليب الدفاع اللاشعورية حيث يصب الإنسان جام غضبه لا على المصدر الذي أثار غضبه و إنما على أفراد آخرين أو أشياء بديلة ، إذا كانت القيم و المبادئ لا تسمح بتفريغ العدوان على مصدره المباشر ، و هذه الظاهرة كبش فداء ، مثال ذلك الطفل الغاضب الذي يحطم لعبه ، و الأب الذي يلقي إهانة من رؤسائه في العمل فيصب غضبه على أولاده في المنزل .

ب- العدوان المتردد أو إيذاء النفس : و الذي يظهر في عدم قدرة الفرد المنحرف على تصريف عدوانه على موضوع العدوان في العالم الخارجي ، حيث يتجه إلى عقاب ذاته عن غير قصد واضح منه سواء بشكل مادي أو معنوي (22) ، كأن يتورط في أعمال أو سلوك مشين أو مؤذ أو حرمان الذات من الطيبات المشروعة ، ومن الصور المنصرفة للعدوان المرتد التورط في جرائم سواء جرائم القتل أو السرقة أو الجنس أو في التورط في اقتراف الانتحار كمحاولة يائسة للتخلص من الشعور بالذنب أو العجز .

يدرس علماء النفس الجريمة داخل المجتمعات المختلفة من حيث كونها اضطرابا سلوكيا أو ظاهرة انحرافية ، و لا يكون اهتمامهم بالدرجة الأولى في ضوء التوجيهات الدينية أو كظاهرة قانونية أو كسلوك يخالف شرعا معينا أو نصوصا محددة في القانون العقوبات لذلك تنصرف دراساتهم عن كونها انحرافا عاما عن أوضاع المجتمع ومن المعروف أن المجتمعات تختلف اختلافا واضحا فيما يعد سلوكا سويا أو سلوكا منحرفا أو في معايير تحديد الاستواء والانحراف ، لذلك يهتم علماء النفس بظاهرة الانحراف من حيث العوامل والدوافع الشعورية واللاشعورية التي تدفع بعض الأفراد إلى القيام بأعمال لا يقدم عليها الأسوياء من البشر داخل نفس المجتمع (23)، و رغم أن الجريمة تشير إلى انحراف اجتماعي من وجهة نظر المجتمع

إلا أنها لا تعبر عن أي شذوذ نفسي أو خلل في الشخصية إذ ان إن بعض الأسوياء يرتكبون سلوكا يعد انحرافا نتيجة لضغوط خارجية أو مواقف قوية وضاغطة ، و لهذا لا يهتم علماء النفس كثيرا بالجرائم العارضة التي يأتيها الأسوياء تحت ضغوط خارجية أو في مواقف معينة مثل قتل الزوجة في موفق الخيانة أو السرقة بسبب الجوع و الحرمان أو نتيجة خطأ غير مقصود كالقتل الخطأ بالسيارات ، فمثل هؤلاء الأفراد لا ينظر إليهم علماء النفس على أنهم مجرمون من المنظور النفسي مع أنهم ارتكبوا أفعالا تعد جرائم و تستحق العقاب من الناحية القانونية .

و تشير الدراسات النفسية إلى أن المجرمين خليط غير متجانس من الأسوياء والعصبيين والذهنيين والسيكوباتيين وضعاف العقول وغيرهم ، كما تشير الدراسات النفسية إلى أن ما تتسم به هذه النماذج المتعددة من سمات عدوانية وجنسية وانحرافية ينفذونها بالفعل ، توجد أيضا لدى غير المجرمين ولكن بدرجة أقل و اخف حدة ، لدرجة أن بعض علماء التحليل النفسي يذهب إلى أن المشكلة التي تواجهنا لا تتمثل في إقدام بعض الأفراد على الجرائم ولكنها تتمثل في تفسير إحجام بعض الناس عنها ، و وجهة النظر وراء ذلك تقوم على أن الغريزة الأساسية المسيطرة على الإنسان هي غريزة الجنس و قد جهل أو تجاهل هؤلاء نفر من المفسرين سمو الإنسان والتكريم الإلهي له وطبيعة الوظيفة الاستخلافية التي أهله الخالق سبحانه وتعالى لها والقيم الدينية في توجيه وتنقية وتطهير سلوك الإنسان عن إقناع وليس عن طريق القهر والكبت والقمع والإحباط وهي المقولات الأساسية لمدرسة التحليل النفسي وعموما فإن علماء النفس يرون أن الفارق بين الشخصية السوية والشخصية المريضة هو فارق الدرجة وليس فارق النوع

و بمعنى آخر يسعى للجريمة طلبا للعقاب وهنا تكون الجريمة تتم بشكل لا شعوري لإرضاء الدوافع المكبوتة إلى جانب كونها مصدر الألم والعقاب والعذاب الذي يريح الضمير الآثم و يرضى النزعة السادية إلى عقاب الذات .

يبد أن المشكلة كما يذهب علماء التحليل النفسي أن ما يقوم به هؤلاء الأشقياء من أعمال إجرامية لا يمس المصدر الأصلي اللاشعوري للعصيان والذنب والذي تكون أثناء التربية خلال السنوات الأولى من العمر .

و يندرج تحت هذه الفئة طائفة المجرمين بالاحتراف الذين يتخذون من الجريمة مصدرا للارتزاق غير مشروع بالطبع و لإرضاء الدوافع و الحاجات المادية و النفسية و يتعرض بعض العلماء على مصطلح المجرم السوي ، ذلك لأن هذا المصطلح يتضمن نوعا من التناقض اللفظي من حيث كون الإنسان مجرما فهذا يعني أنه غير سوي ، هذا من جهة و من جهة أخرى فإن الفرد الذي ينشأ في بيئة إجرامية تختلف في قيمها و معاييرها عن معايير و قيم المجتمع العام ، وتردد الشخص بين هاتين البيئتين المتناقضتين من حيث القيم ، يوجد عنده بالضرورة نوع من صراع القيم والتوتر و الصراع تحول دون نمو لشخصيته نموا سويا متزنا صحيا

الهوامش

- 1 - أحمد محمد خليفة ، مقدمة في دراسة السلوك الإجرامي ، دار المعارف القاهرة 1986 ص 51
- 2- أنور محمد الشرقاوي ، انحراف الأحداث ، دار الثقافة للطباعة و النشر ، القاهرة 1988 ص 47.
- 3- جون دكت ، علم النفس الاجتماعي و التعصب ، ترجمة عبد الحميد صفوت ، دار الفكر العربي ، القاهرة 2000 ص 49.
- 4- رمسيس بهنام ، علم الإجرام ، مكتبة مصر الإسكندرية 1977 ص 61.
- 5- زكريا أحمد الشربيني ، المشكلات النفسية عند الأطفال ، دار الفكر العربي القاهرة 2001 ص 63.
- 6- عدنان الدوري ، أسباب الجريمة و طبيعة السلوك الإجرامي ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت 1984 ص 75.
- 7- عدنان الدوري ، أسباب الجريمة و طبيعة السلوك الإجرامي ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت 1984 ص 76.
- 8- محمد الشرقاوي ، انحراف الأحداث ، دار الثقافة للطباعة و النشر ، القاهرة 1988 ، ص 79.
- 9- رمسيس بهنام ، علم الإجرام ، مكتبة مصر الإسكندرية 1977، ص 83.
- 10- أحمد محمد خليفة ، مقدمة في دراسة السلوك الإجرامي ، دار المعارف القاهرة 1986 ، ص 86.
- 11- زكريا أحمد الشربيني ، المشكلات النفسية عند الأطفال ، دار الفكر العربي القاهرة 2001 ، ص 89.
- 12- محمد الشرقاوي ، انحراف الأحداث ، دار الثقافة للطباعة و النشر ، القاهرة 1988 ، ص 91.

13- جون دكت، علم النفس الاجتماعي و التعصب ، ترجمة عبد الحميد صفوت ، دار الفكر العربي ، القاهرة 2000، ص 34.

14- أحمد محمد خليفة ، مقدمة في دراسة السلوك الإجرامي ، دار المعارف القاهرة 1986 ، ص 39.

15- رمسيس بهنام ، علم الإجرام ، مكتبة مصر الإسكندرية 1977، ص 44.

16- عدنان الدوري ، أسباب الجريمة و طبيعة السلوك الإجرامي ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت 1984 ص 49.

تكامـل البناء النفسـي بين سلوك الإنسان والجـريمة - مقاربات مفاهيمية -

17- محمد الشوقاوي ، إنحراف الأحداث ، دار الثقافة للطباعة و النشر ، القاهرة 1988 ، ص 56.

18- جون دكت ، علم النفس الاجتماعي و التعصب ، ترجمة عبد الحميد صفوت ، دار الفكر العربي ، القاهرة 2000، ص 29.

19- أحمد محمد خليفة ، مقدمة في دراسة السلوك الإجرامي ، دار المعارف القاهرة 1986 ، ص 58.

20- ، ص 32.

21- محمد الشوقاوي ، إنحراف الأحداث ، دار الثقافة للطباعة و النشر ، القاهرة 1988 ، ص 51.

22- زكريا أحمد الشربيني ، المشكلات النفسية عند الأطفال ، دار الفكر العربي القاهرة 2001 ، ص 56.

23- أحمد محمد خليفة ، مقدمة في دراسة السلوك الإجرامي ، دار المعارف القاهرة 1986 ، ص 129.